

## تعليم أبناء الفقراء

في إنجلترا

للآنسة الفاضلة أسماء فهمي

درجة شرف في التاريخ ودرجة الأستاذية من إنجلترا  
وأستاذة بمعهد التربية

استأثرت الطبقات الثنية في إنجلترا بما كان يعد أرقى أنواع التعليم والثقافة إلى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر . وكان يتلقى أبناء تلك الطبقات العلم في المدارس الخصوصية وفي جامعتي أكسفورد وكمبرج، ذات النفقات الباهظة والزرعة الأرستقراطية البهجة، تلك المهاد التي استجالت بالتدرج إلى معاهد خاصة بذوى اليسر والجاه وأن لم تنشأ في أول الأمر من أجل هذه الطبقة بالذات أما أبناء الطبقات الفقيرة فكانوا يتلقون فنون العلم في مدارس أولية متواضعة تشبه الكتاتيب في مصر في أكثر نظمها وأساليبها . وكان يقوم بتأسيس هذه المدارس الجمعيات الخيرية وأهل البر والإحسان؛ أما الحكومة فلم تتدخل في أول الأمر تدخلاً مباشراً في شؤون التعليم بل اكتفت بتقديم الإعانات المالية للجمعيات ابتداءً من سنة ١٨٣٣ ، ويتكويّن اللجان من حين إلى حين لدراسة حالة التعليم وتقديم الاقتراحات والتقارير للقائمين بشأنه، مما كان له أثرٌ كثر في النهوض بالتعليم وتوجيهه التوجيه الصالح وقد كانت نظرة الحكومة والتطوعيين لنشر التعليم بين الفقراء قاصرة مبتورة، إذ كان الغرض مجرد القضاء على الأمية وتعليم الأطفال بمض الأعمال اليدوية التي قد تساعدهم على كسب الرزق . وعلى ذلك كان منهج الدراسة الأولية عبارة عن مبادئ القراءة والكتابة والحساب والدين ذلك الذي كان يمزج بتلقين الطاعة للرئيس والقناعة بنصيب المرء في هذه الحياة الدنيا . والواقع أن التعليم كان مبنياً على أساس الاحتفاظ بنظام الطبقات المتبقية وخضوع الفقراء للأغنياء ، فكان يخشى أن يؤدي التوسع في تعليم الفقراء إلى عدم رضاهم بحظهم من الحياة . ولقد تجلت تلك النظرة المحدودة في تقرير اللجنة المروفة بلجنة نيوكاسل Newcastle Commission التي عهد إليها بدراسة حالة تعليم أبناء الشعب فأصدرت تقريراً وافياً عام ١٨٦٠ أعلنت فيه رضاهها عن حالة

فلما كانت أيام بدمقارة (س. ١٠٠ ع) جاء إلى مجلسنا في القهوه شاب من أسدقائنا المتأدين ، هو الأستاذ اسماعيل خ ، وهو محام ناشئ له ولوع بالأدب وشهوة في الجدل ، وفيه إلى ذلك لين في الخلق وشهوة في الطبع ؛ وكان الراقى يعرفه عرفاننا فما رآه حتى وجد فيه عنوان مقالة ... قال عليه يسأله ضاحكاً ... وأجاب الأستاذ إسماعيل : « الزواج ! وما يحملني على هذا العنت ؟ أتريدني على أن أبيع حريتي من أجل امرأة ؟ ... » ومضى يؤيد دعواه بالبراهين والأمثال ...

وتم للراقى موضوعه ، فأملى على في اليوم التالي مقالة « استنوق الجمل »

في هذه المقالة يجد القراء سبباً آخر لانصراف الشباب عن الزواج غير ما قدم س. ١٠٠ ع في المقالة السابقة ؛ فهي الحلقة الثانية من هذه السلسلة ...

وأحس الراقى بالتعب ، فانصرف عن الكتابة أسبوعاً ليستريح ، ولم من هنا ومن هناك طائفة من منشور القول فأرسله إلى الرسالة بعنوان كلمة وكلمة . وهي عبارات قصيرة من جوامع الكلم ، ليس بينها رابطة في الفكر ولا في الموضوع ، وكل كلمة منها موضوع بتمامه

وقد قدمت القول عن هذه الكلمات القصار التي كان الراقى ينشرها بعنوان « كلمة وكلمة » ؛ فحسب هنا أن أشير إلى موضوع هذه الكلمات ودوافعها :

في هذه الكلمات التي نشرها بالعدد ٦٥ سنة ١٩٣٤ كلمات عن المرأة والحب ؛ وهذه من فضلات المعاني التي اجتمعت له في مقالات المرأة والزواج ولم يجد لها موضعاً مما كتب ... وفي هذه الكلمات رسائل إلى ( فلانة ) من تلك الرسائل التي قدمت الإشارة إليها عند الحديث عن حب الراقى . وفيها كلمات عن السياسة المصرية يعرف دوافعها من يذكر الحال السياسية التي كانت في مصر لذلك العهد وحكومة صديق باشا محتضر ... فمن هذه العناصر الثلاثة اجتمع له هذا القدر من كلمة وكلمة

« ططا » محمد سعيد العريانه

\*\*\*

وجه إلى الاخوان الذين يصفونني برسائلهم أن يجعلوا عنواني (مؤقتاً) على دار الرسالة حتى تستقر في الرحلة

جهلاء يقضون على الديمقراطية باسم الديمقراطية  
وفي القرن العشرين خطا تعليم أبناء الفقراء خطوات واسعة  
حوالى سنة ١٩٠٠ ، قادت مدة الدراسة الأولية إلى سن الرابعة  
عشرة ، وأنشئت الخدمة الطبية للمدارس سنة ١٩٠٧ للاهتمام  
بصحة فقراء التلاميذ . وكان للحرب الأوربية الكبرى أعظم  
الأثر في تدعيم مبادئ الديمقراطية والمساواة ظهر أثره بجملاء في  
ميدان التعليم والعناية بأمر الأطفال دون تمييز بين الطبقات .  
ويشير الأرنل بلديون رئيس الوزارة الانجليزية السابقة إلى تلك  
الزعة الحديثة عند ما يقول : « إن وجود نوع واحد من الثقافة  
من أقوى عوامل الوحدة والائتلاف بين أفراد الشعب ، وإن  
انجلترا لم ترح في الماضي بسبب عدم اهتمامها بتكوين النفاهم  
والارتباط العقلي بين طبقات الأمة . فلقد كانت مدارسنا مقسمة  
بحسب الطبقات لا بحسب الفروق العلمية ... ولكن قد بزغ  
فجر عهد جديد الآن ، فان بناء المدرسة الأولية المهرم قد أقيم أخيراً  
على أقباضه بناء جديد ... »

والواقع أن هذا القرن يمتاز بالرغبة والعمل على القضاء على آثار  
الفروق المادية والاجتماعية من ميدان التعليم ، تلك الفروق التي لم  
تكن تؤدي إلى الاختلاف في أنواع الثقافة والتربية بين أبناء  
الشعب فحسب ، وإنما كانت تحول في أغلب الأحيان دون ظهور  
نبوغ أبناء الفقراء لسبب إهمال تنمية مواهبهم مما ينتج عنه بطبيعة  
الحال إقلال عدد النابغين في الأمة خصوصاً إذا راعينا أن الطبقة  
الفقيرة لا يقل عدد أفرادها عن أربعة أمثال عدد أفراد الطبقة  
الفنية والمتوسطة معاً ، وأن عدد النابغين فيها إن لم يزد على عدد  
الموهوبين في الطبقتين المذكورتين لا يمكن أن يقل ؛ وهكذا يضيع  
نصف نبوغ الأمة سدى إذ يقصر على تأدية الأعمال الوضيعة التي  
لا تستغل ولا تنمي المواهب المالية.

ولتحقيق أغراض التربية الحديثة يبدأ الاهتمام بأمر الأطفال  
الفقراء في سن مبكرة ؛ فمن سن الثانية إلى الخامسة يرسل الأطفال  
— إذا أرادت الأم — إلى مدارس الحضانة Nursery Shools  
التي توجد عادة في الأحياء للصناعية الفقيرة المكتظة بالسكان  
حيث تضطر الأمهات في أغلب الأحيان إلى مناداة منازلهن في  
الصباح الباكر للعمل مع أزواجهن في المصانع ؛ فتقوم هذه

تعليم أبناء الفقراء إذ ذكرت بشيء من الدهشة أن في مكنته ثلاثة  
أخماس التلاميذ المدونة أسماءهم في سجلات المدارس الأولية أن  
يتلموا القراءة والكتابة دون صعوبة ظاهرة ، وأن يقوموا بإجراء  
العمليات الحسابية البسيطة التي تتصل بحياتهم اليومية كما يتلقون  
مبادئ الدين الأساسية وما يتصل بها من التماثيل الخلقية ... أما  
مواد الثقافة العامة كالناريخ والجغرافيا التي كانت قد بدأت تشق  
لنفسها طريقاً في النهج فلم تمرها اللجنة التفاتاً إذ لم تكن معتبرة  
من المواد الأساسية

على أن تلك النظرة الضيقة إلى تعليم أبناء الفقراء  
أخذت تتغير تغيراً كبيراً في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن  
التاسع عشر تحت تأثير عوامل مختلفة أهمها انتشار الأفكار الحرة  
وتعم حركة العمال واتساع نطاق الحقوق الانتخابية التي شملت  
طبقة العمال سنة ١٨٦٧ ، فأصبحت تلك الطبقة تلمب دوراً هاماً  
في مصير الأمة وتكثيف شئونها . وسرعان ما شمرت الطبقة  
الحاكمة بأهمية هذا الانتقال الذي أوجب تعليم الطبقات الفقيرة  
بما أنها ضمت إلى زمرة السادة والحكام نتيجة تعديل نظام  
الانتخاب . وعلى ذلك نجد الحكومة الانجليزية تتدخل بتدخلها  
جدياً في شئون التعليم وتسن القوانين لتعميم التعليم الأولي  
( Elementary education ) . ففي سنة ١٨٧٠ صدر قانون  
بتكوين مجالس للتعليم الأولي ( School Boards ) في المناطق  
المختلفة التي تقل فيها أو تنعدم المدارس التي كان يقوم بإنشائها  
الجميات الخيرية للقيام بسد النقص وتوفير التعليم لجميع أبناء  
الشعب ، كما جعل من اختصاصها الاشراف على التعليم في المدارس  
الأولية المختلفة بينما جعلت مدة الدراسة الأولية خمس سنوات من  
سن الخامسة إلى العاشرة . على أن التعليم لم يصبح إجبارياً بمآب  
القانون على تركه إلا في سنة ١٨٨٠ . وامتد ذلك الانتقال الهام  
أدخلت مواد جديدة في برامج التعليم الأولي في حين منحت  
إعانات مالية لكثير من التلاميذ الفقراء النجباء لمساعدتهم على  
دخول المدارس الثانوية والفنية والجامعات . وهكذا نجد أن اتساع  
حائرة الحقوق النيابية في انجلترا يقابلها اتساع وإصلاح في دائرة  
تعليم الفقراء ، وفي ذلك بلازاع لب الحكمة ، إذ أن الخطر كل  
الخطر في وضع القوة السياسية أو الحقوق الانتخابية في يد قوم

المدارس بتعهد الأطفال للعب في أمكنة معرضة لأشعة الشمس والهواء، وتزود بكل أنواع اللعب المعدة للتسلية والحركة والابتكار؛ ويقضى الأطفال اليوم في اللعب والنماء والحركات التوجيهية وسماع القصص المصورة كما يمودون على القيام ببعض الأعمال التعاونية كالاشتراك في إعداد مائدة الطعام وتنسيق الأزهار وترتيب الحجرة، كما يمودون على آداب المائدة والترتيب والنظافة واحترام رغبات الغير

ويبدأ التعليم الإلزامي من سن الخامسة إلى الرابعة أو الخامسة عشرة. وتقسّم مرحلة التعليم الإلزامي الآن إلى ثلاث مراحل؛ فالرحلة الأولى من سن ٥ - ٧، وفي هذه المرحلة تسير الدراسة وفق برنامج رياض الأطفال في مصر فيهم بالألعاب والقصص والرسم والأناشيد والرقص، ويبدأ تعليم القراءة والكتابة عن طريق اللعب. والمرحلة الثانية من سن ٧ - ١١. وفي هذه المرحلة يدرس الأطفال ما يدرسه تلاميذ المدرسة الابتدائية المصرية معاً واللغات الأجنبية في أكثر المدارس. ومهم في هذه المدارس اهتماماً كبيراً بالأعمال اليدوية والموسيقى. أما المرحلة الثالثة فتبدأ من سن ١١ - ١٤ أو ١٥ وهذه المرحلة تعرف بمرحلة التعليم الثانوي. وعند بدء هذا الدور بمقدار امتحان عام للتلاميذ الذين يبلغون الحادية عشرة، ويمتضى نتيجة هذا الامتحان يقسم التلاميذ إلى ثلاثة أقسام، فالتلاميذ المتفوقون يرسلون إلى المدارس الثانوية التي تعد للجامعات والوظائف الفنية؛ والذين يكونون في المرتبة الثانية يذهبون إلى نوع آخر من المدارس الثانوية تسمى المدارس المركزية (Central Schools) تختلف عن المدارس الثانوية العادية في كونها تتجه في السنتين الأخيرتين اتجاهها عملياً، فتربط مواد الدراسة بالبيئة كأن تشمل مادة الجغرافيا دراسة حالة البلد الاقتصادية وأسواقها التجارية وصناعاتها وعلاقتها بالأمم الأخرى الخ، وكان تكون اللغة الأجنبية التي تدرس لغة حية يكون الغرض من دراستها التفاهم بخصوص الشؤون التي تتصل بحياة الطالب وعمله ودائرة تفكيره لا أن تكون أكاديمية بمعنى أنها تهتم بخواص الأجرومية أو الماني والمصطلحات التي قلما يحتاج إليها في الحياة العملية. أما تلاميذ المرتبة الثالثة فيرسلون إلى مدارس ابتدائية راقية (Senior School) تمشي برامجها إلى حد ما مع

برامج المدارس الثانوية من ناحية الاهتمام بالثقافة العام بينما توجه عناية كبيرة إلى إعداد الطالب لبيئته الخاصة فتهتم مثلا بالعلوم الزراعية إذا كان الطالب يعيش في بيئة زراعية، أو بالمواد التجارية إذا كان الطالب يعيش في منطقة تجارية. وبالجملة يراعى في هذا التقسيم التمشي مع مقدرة الطالب العقلية ثم الاهتمام بالناحية الثقافية وتوسيع دائرة اهتمام الطالب بالروابط الانسانية ونواحي الحضارة المختلفة. ولا يقصد بهذا التقسيم التوجيه المعنى بالهدى أو إعداد الطالب لكسب العيش بطريقة مباشرة، وإنما الغرض الأول من الدراسة الإلزامية في مراحلها الثلاث أي من سن الخامسة إلى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة هو إعداد الطفل لأن يكون إنساناً مهذب الخلق والاحساس فاقسط من الثقافة قبل أن يمد لأن يكون تاجراً أو صانعاً

ولا يقصر الاهتمام في هذا الدور من التعليم على التربية العقلية والخلقية، وإنما يولى أولو الشأن عناية كبيرة إلى نحة التلاميذ الفقراء. فلقد جعل لهم عيادات طبية يشرف عليها أطباء وممرضات تعطى العلاج والدواء مجاناً للتلاميذ، وتقوم الممرضات بزيادة منازل الأطفال لتوجيه النصح والارشاد للأمهات كما توجد مستشفيات ودور نقاهة خاصة بهؤلاء الأطفال. كذلك تعمل المدارس على علاج ضفاف الأجسام من فقراء التلاميذ بتقديم اللبن لهم مجاناً حتى في أيام المسامحات لمن تظهر عليهم علامات الضعف بسبب رداءة التغذية. ومما يستحق الذكر في هذا المقام أن الأموال التي جمعت لعمل تذكار للملك جورج الخامس خصصت لشراء أراض واسعة تستعمل ملاعب للأطفال الفقراء ولقد كان من نتائج زيادة الاهتمام بالتعليم الإلزامي وتصديق مناهجه مضاعفة الاهتمام بالمدرسين وإعدادهم إعداداً يتماشى مع تلك النزعة الديمقراطية الحرة؛ وعلى ذلك نجد الاتجاه الآن أن يكون المدرسون ممن حصلوا على تعليم جامعي أو ما يعادله حتى تتوفر لديهم الثقافة الواسعة والتهذيب العقلي والمعنوي الذي يحتاج إليه صربي النشء من بيئة ديمقراطية

ولا تقف مطامع المشتغلين بالتربية في إنجلترا وأنصار مبادئ الديمقراطية والمساواة عند هذا الحد إذ هم لا يكتفون بتعليم أبناء الفقراء حتى سن الخامسة عشرة بل يطالبون بإطالة مدة تعليمهم